:

Nazarena Lanza

▶ To cite this version:

Nazarena Lanza. : . , Al Mesbar Studies & Research Centre, pp.63-82, 2012. ⟨halshs-00805000⟩

HAL Id: halshs-00805000
https://shs.hal.science/halshs-00805000

Submitted on 9 Apr 2013

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire **HAL**, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

زاوية سيدي العربي بالرباط : فضاء جدب جديد للزائرين التيجانيين السينيغاليين في طريقهم إلى مدينة فاس

دراسة من إنجاز : نازارينا لنزا (باحثة إيطالية تقيم بالمغرب)
ترجمة : مصطفى المناصفي (باحث بمركز جاك بيرك للدراسات و الأبحاث في العلوم الاجتماعية، المغرب)

مقدمة

تحتضن عاصمة المملكة المغربية الرباط، زاوية[1] للطريقة التيجانية تدعى "زاوية ضريح سيدي العربي بن السايح"[2]. وتعتبر هذه الزاوية مكانا ثانويا للتعبد بالمقارنة مع الزاوية الأم المتواجدة بمدينة فاس، و التي تعد مكانا يحج إليه الزائرين المغاربة المنتمين و غير المنتمين إلى الطريقة و كذا التيجانيين السينغاليين.

إن البحث الإثنوغرافي الذي قمنا به مند أشهر لهذه الزاوية، بالإضافة إلى دراسة "الدوائر التيجانية السينغالية"[3] التي تنظم الزيارة[4] إلى المغرب، دفعنا إلى تقديم الفرضية التالية، و التي ستكون محور دراستنا في هذا المقال : يلعب شيخ[5] زاوية سيدي العربي بن السايح بالرباط و كذا عدد مهم من السينيغاليين الذين ينظمون الزيارة إلى المغرب، بصفة منظمة أو عفوية، دورا حاسما في تحول هذا المكان التعبدي الثانوي إلى مرحلة أساسية في الطريق إلى زيارة مقر الطريقة التيجانية بمدينة فاس. زيارة السينغاليين للزاوية المتواجدة بمدينة الرباط، تساهم كذلك في استمرار الروابط و التنقلات ذات الصبغة الدينية و ذات القيمة المضافة من الناحية السياسية بين المغرب و السينغال الذين تجمعهم علاقات سياسية منذ قرون.

سنحاول كذلك، دراسة الديناميكيات التي تلعب دورا مهما في الحفاظ على نوع العلاقة في فضاء الزاوية بين الشيخ الذي يوجد على قيد الحياة، و الولي الصالح[6] المدفون بالزاوية، و كذا الزائرين المغاربة و السينيغاليين.

نهدف كذلك، من خلال هذه الدراسة، إلى تبيان العلاقات و التوقعات التي تتقاطع و تتواجه داخل هذا الفضاء السوسيو-ثقافي (الزاوية)، مما سيمكننا من معرفة تموقع السمات المميزة للفاعلين موضوع الدراسة.

سنقوم في البداية، من خلال مقاربة سوسيو-تاريخية، بدراسة العلاقات الدينية بين المغرب و السينغال عبر الزاوية التيجانية (المبحث الأول) ؛ و سوف نخصص المبحث الثاني لدراسة الملاحظات و المعطيات التي جمعنها من خلال البحث الميداني الذي قمنا به بكل من المغرب و السينغال ؛ وسننهي دراستنا بخاتمة تتضمن محاولة تركيبية لمضامين نتائج البحث.

فيما يخص المنهجية، اعتمدنا في بحثنا على الملاحظة التشاركية من أجل جمع المعطيات، وذلك من خلال بناء علاقات طويلة الأمد مع الأفراد موضوع البحث، كما اعتمدنا على إنجاز مقابلات متعددة مع هؤلاء.

إن البحث و الملاحظات التي قمنا بها داخل زاوية سيدي العربي بن السايح بالرباط أجرينها مابين شهر يناير/كانون الثاني و غشت/أب2011، مع انقطاع خلال شهري فبراير/شباط و مارس/أدار الذين خصصا للبحث بدولة السينغال.

---

[1] مركز ديني و مكان سكنى شيخ الزاوية.
[2] حسب الموقع الرسمي للزاوية التيجانية ولد سيدي العربي بن السايح سنة 1229ه/1813م.
[3] جمعية دينية متواجدة بدولة السينغال.
[4] زيارة فردية أو جماعية لضريح ولي صالح أو لممثليه، الذين يوجدون على قيد الحياة، يقوم بها المريدين لطلب البركة وحل مشاكلهم الاجتماعية.
[5] رئيس الزاوية الذي يحمل لقب شيخ ويحمل معه بركة و كذا العفو الإلهي المنتقل من جيل إلى جيل.
[6] مصطلح قرأني من أجل تحديد أعلى درجة في الإسلام وهي الإحسان التي يصل إليها الأولياء الصالحين.

بالنسبة للمغرب، اعتمدنا على منهجية المقابلات المفتوحة. نتيجة لذلك، فإن المقابلات التي قمنا بها من أجل إنجاز هذه الدراسة هي امتداد للملاحظات التي تم بنائها في المراحل الأولى للبحث. عكس ما قمنا به في السينغال، بحيث أنجزنا مباشرة المقابلات، لأن الظروف لم تسمح لنا بإجراء تقنية الملاحظة التشاركية.

الإسلام و التيجانية في العلاقات التاريخية بين المغرب و السينغال

لقد لعب الدين الإسلامي منذ القدم دورا أساسيا في العلاقات بين المغرب و السينغال؛ إذ ساهم في تمتين العلاقات المتواجدة بين البلدين و المستمرة إلى يومنا هذا من خلال قنوات التواصل الدبلوماسي بين البلدين خصوصا في مجال التعاون[7]. إن الحديث عن الخليفة و الشيخ التابعين للزاوية التيجانية حاضر خلال اللقاءات السياسية و الزيارات الرسمية التي يقوم بها مسئولو البلدين.

وتعتبر العلاقات الدينية بين المغرب و السينغال ذات صبغة مزدوجة؛ من جهة، بحكم أن طقوس الدين الإسلامي بدولة السينغال مصدرها المغرب، إذ يعتبر المذهب المالكي المتبع بالمغرب هو نفسه الذي يتبناه المسلمون بدولة السينغال وهو ما يعبر عن الأخوة بين مسلمي البلدين. و من جهة أخرى، إن الأغلبية المسلمة بدولة السينغال تنتمي إلى الطريقة[8] التيجانية التي يوجد مقرها بمدينة فاس المغربية، إذ يحج إليها كل سنة مريدين من دولة السينغال.

تحمل الزاوية التيجانية هذا الاسم من مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني؛ ولد هذا الأخير سنة 1727 ميلادية بعين ماضي بالجزائر. بعد دراسته المعمقة للعلوم الإسلامية، دخل الشيخ التيجاني إلى عالم الصوفية، إذ مر عبر العديد من الطرق الصوفية قبل أن تحقق له رؤية، في حالة اليقظة، رأى من خلالها رسول الإسلام محمد وهو يدعوه إلى تأسيس طريقة صوفية أساسها العودة إلى الثوابت الروحية و التقيد الصارم بأركان الإسلام الخمس. وتعتبر الطريقة التيجانية من بين أخر الطرق التي رأت النور، إذ يعتبرها المريدين التابعين لها تتويجا لجميع الطرق السابقة، وكموجز لجميع الرسائل الإلهية السابقة. هذه الطريقة تحاول أن تنفرد عن باقي الطرق بخلق نموذج وحيد مرتكز على ما يسمى ب"القدرة على الرجوع إلى الله"، بمعنى تزويد المريد بأوراد تساعده في سلوكه اليومي ليتقرب من الله[9].

إن تواجد الطريقة التيجانية بالسينغال يدخل في إطار العلاقات بين دول المغرب العربي و إفريقيا جنوب الصحراء؛ وثم أول لقاء للطريقة التيجانية بإفريقيا جنوب الصحراء بمكة سنة 1827 ميلادية بمناسبة موسم الحج، إذ قام أحد شباب قبة فوتا تورو يدعى الحاج عمر طال (1794-1864) بزيارة للديار المقدسة، التقى من خلالها بأحد المقدمين الكبار للطريقة التيجانية[10] يدعى الشيخ محمد الغالي، الذي عين كخليفة[11] للزاوية التيجانية بغرب إفريقيا[12].

كنتيجة للاستعمار الأجنبي، حاول الخليفة الأول للطريقة التيجانية بدولة السينغال الاعتراض على النظام السوسيو-سياسي لبلده الأصل. من أجل ذلك، عين نفسه كزعيم للمجاهدين ضد الاستعمار عبر تأسيسه للطريقة التيجانية كنموذج اجتماعي و ديني بديل. كما اعتبر أن الهوية الجماعية للمجموعة يمكن أن تلتقي مع الدين الإسلامي بهدف تجديد هذا الأخير.

حسب أحد الباحثين (سامب/Sambe 2010)، تعتبر المقاومة التي قام بها المجاهدين ضد الاستعمار الفرنسي هي التي ساعدت على انتشار الطريقة التيجانية بدولة السينغال. كما أن بعض خلفاء الطريقة التيجانية، كمالك ساي و عبد الله نياس

---

[7] بكاري سامب، *الإسلام و الدبلوماسية: السياسة الإفريقية للمغرب*، منشورات مرسم، الرباط، 2010 (مرجع باللغة الفرنسية).

[8] عبارة عن جمعية ذات سلسلة إسلامية، يؤمن المنتمون لها بطقوس خاصة مصدرها الولي المقدس للطريقة.

[9] ج. الأدناني، "تأملات حول نشأة التيجانية. اقتراض و عطاءات"، في كتاب جماعي تحت عنوان: *التيجانية في الطريق إلى فتح إفريقيا*. منشورات كارطلة، 2000، ص. 28. (مرجع باللغة الفرنسية).

[10] يعتبر كعالم من علماء الإسلام، وفي الوقت نفسه طالب و أستاذ بالزاوية. ويعتبر كذلك في تنظيم الطريقة التيجانية العضو الذي توصل بالسر و الذي له الحق في نشره، و بالتالي يمكن له استقبال مريدي الطائفة.

[11] يقصد بذلك، خليفة رسول الإسلام.

[12] أ. بيجا، *الطرق الصوفية بجنوب الصحراء*، منشورات كرطلة، 2006، 237 ص. (مرجع باللغة الفرنسية).

ومن قدم من بعدهم، ساهموا بشكل كبير في نشر الطريقة التيجانية بالبلاد، و هو ما يفسر العدد الكبير لمريدي الطريقة بهذا البلد الإفريقي.

بالمقابل، رغم وجود اختلافات على مستوى تطبيق طقوس الطريقة، فإن جميع الزوايا التيجانية بالسينغال تجتمع على مبدأ واحد مفاده أن الرابطة الروحية مع المغرب مسألة مهمة، بحكم أن هذا البلد يحتضن ضريح مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التيجان بمدينة فاس، هذه الأخيرة تستقبل كل سنة زائرين قادمين من السينغال.

في البداية، اقتصرت الزيارة إلى المغرب على رؤساء الطريقة التيجانية بالسينغال، مرفقين بمقدميهم (ممثلي الطريقة)، عانت هذه الزيارة خلال الفترة الاستعمارية من التفتيش الصارم الذي كانت تجريه السلطات الاستعمارية بسبب خوفها من تأثر السينغاليين بالوطنيين العرب و المسلمين؛ ومباشرة بعد نهاية الاستعمار تعددت الأسفار في اتجاه مدينة فاس المغربية من طرف أنصار الطائفة التيجانية السينغاليين[13].

إن الحصول على إجازة[14] من شيخ مغربي يعد شيء مهم بالنسبة لمريدي الطريقة، لأن ذلك يمنح للمريد موقعا في سلسلة الطريقة، و بالتالي يصبح قريبا من شيخ الزاوية التيجانية ومن رسول الإسلام محمد. إن هذا البعد الرمزي يمنح شرعية وشهرة لمقدمي الطريقة بدولة السينغال أمام مريديهم.

إلى وقت غير بعيد، كانت الطبقة المقيمة بالمجال الحضري هي من تقوم بالزيارة إلى مدينة فاس قادمة من السينغال. كان الدافع وراء هذه الرحلة، التي كانت تتطلب جهدا جسديا و ماليا كبيرا، هو القناعة المطلقة بأن الرغبات الموجهة إلى الزاوية التيجانية بمدينة فاس، المحتضنة لضريح الشيخ أحمد التيجان، سوف تتحقق. هذه القناعة تعتبر إلى يومنا هذا السبب الرئيسي للزيارة التي يقوم بها أتباع الطريقة السينغاليين إلى المغرب.

زاوية سيدي العربي بن السايح

تعتبر الزاوية التيجانية بمدينة الرباط بمثابة مكان للزيارة بالنسبة للمغاربة و السينيغاليين معا، هذه الزاوية هي التي احتضنت خلال النصف الثاني من القرن الواحد و العشرين ضريح سيدي العربي بن السايح (1813-1891م)، الذي يعد من أكبر مقدمي الزاوية التيجانية بالمغرب.

لا توجد مراجع كبيرة باللغة الفرنسية حول هذه الشخصية وحول الزاوية التي ينتمي إليها باستثناء بعض المراجع ذات التحليل الوصفي التي تعود إلى الفترة الاستعمارية[15]. كما توجد في بعض المكتبات مونوغرافيا موجزة حول فكر سيدي العربي بن السايح، كتبها الباحث المغربي بن عبد الله[16] تحث عنوان "بغية المستفيد في شرح منية المريد"[17]. هذا المرجع عبارة عن خلاصة وافية لفكر سيدي العربي بن السايح.

و بالموازاة مع ما تشكله الشخصية الأسطورية لسيدي العربي بن السايح بالنسبة لمريدي الطريقة[18]، فإن هذا الأخير يعتبر في مخيلة المريد كموضوع لمعجزة تاريخية تعكس القدرة التي يعترف له بها من طرف أنصاره. بجوار مسكن سيدي العربي بن السايح، كان يوجد منزل شخص يدعى الحاج عباس بن بركاش. هذا الأخير توفي بعد أن أراد إصلاح بيته، إذ

---

[13] أ. كان، *الطائفة التيجانية بالسينغال و زاوية الشيخ أحمد التيجان بمدينة فاس المغربية. فاس و إفريقيا : العلاقات الاقتصادية، الثقافية و الروحية* سلسلة مؤتمرات و ندوات، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1993. (مرجع باللغة الفرنسية).

[14] شهادة موثقة تتضمن سلسلة الانتقال من أخر شيخ للطريقة إلى الشيخ احمد التيجان مؤسس الطريقة التيجانية.

[15] جاك كايلي، *مدينة الرباط إلى حدود عهد الحماية الفرنسية*، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، حجم 1، و كتاب: *التاريخ المصغر لمدينة الرباط*، تاريخ للنشر غير موجود في غلاف الكتابين. (المرجعين باللغة الفرنسية).

[16] *الصوفية الأفرو-مغاربية خلال القرنين 19 و 20*، منشورات كاب تور، 1995. (مرجع باللغة الفرنسية).

[17] ترجمة عبد العزيز بن عبد الله في كتاب: *الصوفية و نموذج الطريقة التيجانية*.

[18] ولي صالح محلي من أتباع الطريقة التيجانية، أنشأ له ضريح بمدينة الرباط كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

طلب سيدي العربي بن السايح من الحاج عباس وقف أشغال الإصلاح، إلا أن هذا الأخير تجاهل ذلك، مما دفع بسيدي العربي بن السايح إلى الدعاء عليه وتذكيره بأن بيته لن يكتمل إصلاحه. بعد أيام قليلة من ذلك، توفي الحاج عباس بعد مرض لم ينفع معه العلاج. وقد توقفت الأشغال في البيت لمدة طويلة، وقيل أيضا أن البنائين الذين حاولوا إصلاح البيت توقفوا عن البناء خوفا من لقاء نفس المصير[19].

عندما يطلع المرء على السيرة الذاتية لسيدي العربي بن السايح، الموجودة بالموقع الرسمي للزاوية التيجانية[20]، يجد ما يلي: " لقد حبا الله أبا المواهب السائحي رضي الله عنه بمناقب و كرامات تدل على علو مقامه و شريف منزلته عند الله ، وهي كثيرة جدا لأنها تعدت طور حياته إلى ما بعد وفاته (...). و من ذلك أنه أدرك أعلى مقام في الولاية وهو المسمى عند أهل الله بالقطبانية العظمى، و من لازِمِ هذا المقام لا تغيب عنه الذات المحمدية أينما جالت في الملكوت. (...). و مما كان مشهورا به أنه كان له كشف خارق كفلق الصبح فما حدّث بشيء إلا وقع كما أخبر، ولا قابله أحد إلا أخبره بما في قلبه قبل أن يكلمه. كما أنه كان له تصرف قوي و سريع النفوذ، ولازال ذلك بعد وفاته أكثر من حياته. علاوة على خوارق أخرى كان معروفا بها كالبركة في الرزق و إجابة الدعاء، و طي الوقت و الذكر و الطريق، و إبراء العلل الظاهرة و الباطنة، و إغاثة اللهفان، و غير ذلك.(...). و قبره رضي الله عنه ترياق مجرب، فما زاره أحد على أية حاجة كانت بصدق النية، و صفاء الطوية، إلا نال فوق ما أمل. وهذا يشهد به القريب و البعيد، و لا ينكره إلا جحود عنيد (...)"[21].

إن الشيخ الحالي لفرع الزاوية التيجانية بمدينة الرباط، لا ينتمي إلى سلالة سيدي العربي بن السايح، وإنما ينتمي إلى سلالة مؤسس الزاوية التيجانية الشيخ أحمد تيجان، مما يمنحه البركة و لقب "الشريف"[22].

يتحدث الشريف عن سيدي العربي بن السايح كونه الشخصية التي مكنت من جعل الفكر الصوفي في متناول الجميع، عكس النصوص الصوفية الأخرى التي تتضمن مصطلحات يصعب فهمها، خاصة بالنسبة للمبتدئين في المجال الصوفي. يضيف شيخ الزاوية الرباطية: "أن سيدي العربي يعد بمثابة الباب الذي يمكن من خلاله الدخول على مؤسس الزاوية أحمد تيجان، هذا الأخير تنبأ قبل ولادة سيدي العربي بن السايح أن مقدما مهما للزاوية سيستقر بمدينة الرباط والذي تجب زيارته".

يوجد مقر الزاوية، بالعاصمة الرباط، بممر ضيق يحمل اسم وليا صالحا، و يوجد أمامه بهو صغير يباع فيه ماء الورد و بخور و سكر، يمينا توجد نافورة تستغل من أجل الوضوء، شمالا يوجد مدخل الضريح الذي بني بجانب البيت القديم لسيدي العربي بن السايح.

و أكد لنا الشريف أنه من أجل الحفاظ على النسب يستحسن الزواج بين أبناء العمومة، و أضاف أنه يتوفر على البركة بحكم أنه ابن مؤسس الزاوية[23]. هذه البركة، يضيف الشريف، يمكن أن يعطيها إلى المريدين الذين يقصدونه، و هذا ما لمسناه من خلال لقائنا معه، حيث لاحظنا العديد من الأشخاص يطلبون من الشيخ بركته. إذ يقومون بحركة تشبه إلى حد ما الركوع، بعد ذلك يطلب المريد من الشيخ أن يتوسط له مع الله من أجل إيجاد حلول لمشاكله: زوج مريض، نقص في الموارد المالية إلى غير ذلك من المشاكل اليومية التي يعاني منها المريد. بعد ذلك، يضع الشيخ يديه على رأس المريد أو على يديه ثم يهمس بأدعية. وفي صورة أخرى في علاقة الشيخ بزائريه، صادفنا خلال تواجدنا بمقر الزاوية امرأتان

---

[19] ذكرت هذه الحادثة في دراستين للباحث جاك كايلي، إلا أن الشيخ الحالي للزاوية لا يعرفها.
[20] حسب ما ذكر بالموقع نفسه، فأن هذا الأخير هو الموقع الرسمي للزاوية.
[21] أنظر الرابط التالي: http://www.tidjaniya.com/ar/arbi-ibn-saih.php
[22] يمنح هذا اللقب إلى شيخ الزاوية.
[23] "البركة" في المفهوم الصوفي هبة إلهية تنتقل من جيل إلى جيل.

تحملان قنينات ماء و تطلبان من الشيخ أن يتبرك فيهما بقليل من اللعاب، إذ يعتقد المريدين أن لعاب الشيخ فيه بركة ناذرة.

يقوم شيخ زاوية سيدي العربي بن السايح كل عام بزيارة لإفريقيا السوداء بصفته ممثل الزاوية التيجانية المغربية، حيث يقوم بزيارة لخلفاء الزاوية المتواجدين بباقي البلدان الإفريقية : نيجيريا، مالي، الكاميرون، غامبيا...من خلال هذه الأسفار يتعرف الشيخ على كثير من مرابطي الزاوية التيجانية، و بالتالي يكتسب مجموعة من الأسرار[24] لمعرفة التيجانيين الحقيقيين أصحاب القلوب التقية.

في الوقت الراهن، قرر شيخ زاوية سيدي العربي بن السايح توقيف رحلاته إلى الخارج من أجل توفير المال لإعادة تهيئة مقر الزاوية؛ للإشارة، إن المصدر الأساسي للموارد المالية للزاوية هو ناتج عن هبات رجال الأعمال، وهي بمثابة تعويض لشيخ الزاوية عن تفرغه لأنشطته الروحية.

هناك فقط قلة قليلة من المغاربة هي التي تتردد على الزاوية، عدد مهم منهم يأتون إلى الزاوية من أجل الصلاة (صلوات الخمس) لأنهم يعتبرونها بمثابة مسجد، فئة أخرى تأتي من أجل الصلاة ومن أجل طلب العفو من الضريح. في هذا الإطار يقول الباحثان ديبون و كابولاني :"إن الضريح، في اعتقاد زائريه، له القدرة على أن يفعل المعجزات لحماية الأفراد الذين يحمون ذاكرته ويعظمون اسمه، وفي الوقت نفسه فهو يعاقب كل جاحد انتهك توصياته أو لا يتفق مع المبادئ المقدسة للدين المحمدي"[25] .

إن سيدي العربي بن السايح معروف بمعجزاته عند مريديه، كقدرته على السفر إلى الشرق الأوسط في ظرف وجيز. لهذا فكثير من المغاربة يأتون من كل مكان لزيارة ضريح سيدي العربي الذي يعتبر في اعتقاداتهم أنه ولي صالح يساعد ببركته الناس، خصوصا النساء، على حل مشاكلهم. والسبب المحتمل في استفادة النساء من بركة سيدي العربي كما يقال، هو أن هذا الأخير عين كخليفة له زوجته لالة عائشة، حيث يعتقد الكثير من النساء أن منح خلافة الزاوية إلى امرأة يعد كملجئ مفضل لهن من أجل طلب ما يحتاجونه.

في يوم الأربعاء من كل أسبوع، يمتلئ بهو الزاوية بالزائرين، لأن الاعتقاد الشائع وسط الزائرين أن الولي المدفون بالضريح يفضل استقبالهم في هذا اليوم، و بالتالي فيوم الأربعاء هو يوم خاص و مهم بالنسبة للزائرين وفيه ترتفع نسبة الزيارة إلى الضريح.

هناك عدد كبير من الزائرين يأتون من مناطق مجاورة للعاصمة الرباط (سلا، تمارة، الدار البيضاء...)، كما أن هناك زائرين يأتون من مناطق بعيدة عن العاصمة. و هي حالة امرأتين قدمتا من مدينة وجدة، شرق المغرب (مدينة حدودية مع الجزائر)، من أجل التبرك بضريح سيدي العربي بن السايح. للأسف صعوبة الحديث بالعامية المغربية مع هؤلاء النسوة لم يسمح لنا إلا بإجراء حديث سطحي معهن.

وإذا أردنا أن نقوم بتحليل سوسيو- لغوي للاستعمال اللغوي داخل الزاوية، يمكن أن نلاحظ أن الأشخاص الذين تحدثوا لنا بالفرنسية هم فئة قليلة وفي غالب الأحيان اندمجوا في الطريقة بكل طقوسها، عكس الآخرين، أغلبهم نساء، ليس لهم اندماج و انتماء كلي في طقوس الطريقة، هم فقط يأتون إلى الزاوية دون نية الانخراط التام في طقوسها، هدفهم الوحيد هو التبرك بضريح سيدي العربي بن السايح.

إن الاعتقاد السائد لزائري ضريح سيدي العربي بن السايح، أن قبة هذا الأخير فيها "بركة" مرتبطة بالوساطة التي يقوم بها هذا الأخير بين الزائر وربه، و بالتالي فقبة الضريح تلعب دور الوسيط، يلجئ إليها الزائر لتقضى له مطالبه.

---

[24] مجموعة من النصوص المقدسة عبارة عن أذكار يرددها المريد.

[25] دوبون و كوبلاني، *الطوائف الدينية المسلمة*، الجزائر، 1897، ص. 144 (مرجع باللغة الفرنسية).

وقد أكد لنا شيخ زاوية سيدي العربي بن السايح هذه الانطباعات، و أضاف قائلا: "انه بخلاف السينغال الذي تعتبر فيه الزاوية التيجانية ذات طابع جماهيري، في المغرب تبقى الزاوية ذات سمة نخبوية، بحيث أن المقدمين المنتمين إلى الزاوية لهم تأثير في دوائر القرار، و هناك انخراط شعبي لبعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم تيجانيين ولكنهم لا يعرفون أسس الطريقة و كيفية اشتغالها".

واعتبر شيخ الزاوية التيجانية، أن حال هذه الأخيرة أضحى منحطا نتيجة للإهمال الذي لاقته الطريقة من طرف السلطات منذ الاستقلال، و استمر هذا الإهمال حتى حدود سنوات الثمانينات من خلال تشجيع إسلام بعيد كل البعد عن التقاليد رغم أن السلطات، يضيف الشيخ، حاولت توظيف الزاوية التيجانية كأداة لخلق جسور التواصل مع دولة السينغال و مع عدد كبير من الدول الإفريقية التي تعرف تواجد للطريقة التيجانية داخل ترابها.

وتحدث الشيخ كذلك، بنبرة أسف، عن تنامي طرق صوفية حديثة بالمغرب، ولكنها قوية كالطريقة البوتشيشية. هذه الطرق، حسب الشيخ، كل واحدة منها أضحت ذات طابع مقاولاتي تنافسي، بحيث إن الطريقة أصبحت عبارة عن مقاولة دينية يتحتم عليها من أجل البقاء و فرض الوجود الانتشار و لفت انتباه عدد كبير من المريدين.

بالنسبة للزائرين، يعتقد شيخ الزاوية أن غالبيتهم سينغاليين، لهذا فهو يرى أن موطن التيجانية هو دولة السينغال. و من أجل تبرير ذلك، أكد لنا الشيخ أن بيته كان و لا يزال يتردد عليه كبار الشخصيات وخلفاء الطريقة التيجانيين السينغاليين مثل الشيخ عبد العزيز دباهسي (1904-1997)، كما أن هناك وفود تأتي من السينغال كل عام لزيارة والده و لزيارة ضريح سيدي العربي بن السايح.

خلال السنين الأخيرة، تكاثر عدد الزائرين القادمين من السينغال، ليسوا كلهم من الشخصيات المرموقة، و لكنهم من شرفاء الزاوية و كذا أتباع الطريقة بهذا البلد الإفريقي. لهذا يعتقد شيخ الزاوية أن دوره كشيخ مهم و بسبب حضوره يعتبر هذا المكان حيويا و ذو نشاط فعال رغم أن تدفق الزائرين على زاويته يبقى ضعيفا بالمقارنة مع الزاوية التيجانية المتواجدة بمدينة فاس.

خلال إحدى الزيارات التي قمنا بها للزاوية، التقينا شاب مغربي صرح لنا بوجود أرشيف، يتضمن كتب و أقراص وصور ناذرة للزائرين. خلال نقاشنا مع هذا الشاب، تحدث لنا عن الشخصية الكاريزمية لسيدي العربي بن السايح و عن تاريخه و عن أهمية طريقته الصوفية، و صرح لنا أن هذا الأخير هو باب الشيخ أحمد التيجان، لذلك فالزائرين القاصدين هذا الأخير ملزمين بزيارة سيدي العربي قبل التوجه إلى مدينة فاس.

وأضاف هذا الشاب، أن هناك فرق بين الزائرين المغاربة و السينغاليين، هؤلاء في نظر الشاب أكتر جدية من المغاربة، إلا أنه لم يخفي أن بعضهم يأتون من أجل أغراض تدخل في إطار التجارة في حماسة المريدين، و ربما يستعملون حيلا من أجل جمع المال. لأن هناك مريدين حقيقيين، حسب الشاب، مستعدين لأداء الكثير من المال من أجل التوصل بالسر، و بالتالي فهم معرضين للاحتيال من طرف من يستغل حماسهم روحي.

حسب هذا الشاب إن "السر" هو بمثابة هدية، و الشخص الذي يتلقاه بدوره يقدم هدية لمن أهدا له السر. والاعتقاد السائد هو أن الجميع ليس "متخصصا" في جميع المجالات، لهذا يمكن التوصل بأسرار مختلفة من أشخاص مختلفين[26]. إن القاعدة العامة تقول أنه لا يمكن طلب السر أو حتى الإجازة، لأن ذلك يدخل في مهام "خادم الله"[27] الذي يمكن له ملاحظة من هو مستعد للتوصل بالسر. في هذه الحالة فالشخص المعني يعلن أنه حامل للسر، وذلك عبر تقديمه للائحة عن ما يقوم

[26] في كتابه، *إشكالية المسليمين بالسينغال*، للباحث عبد الرحمان سيك، تحدث هذا الأخير عن ظاهرة نقل الأسرار، وهو طقس مهم داخل أنشطة الزاوية.

[27] باللغة الفرسية مصطلح استعمله محاورنا خلال حديثنا معه.

به من واجبات و ما يمكن أن يفعله في المستقبل. و من أجل أن يكون المريد مؤهلا لاستقبال السر يجب أن يتوفر على القوة المتجلية في القدرة على استظهار الأذكار. هذه الأخيرة، حسب الاعتقاد السائد، تشحن الشخص وتقصي جميع النقاط السلبية التي توجد بداخله وتؤثر على سلوكه، مما يمنح للمريد فرصة الحصول على السر.

إن الأسرار توجد تحث أعين الجميع، لأنها مكتوبة في النصوص المقدسة، لكن ما يمنحه الشيخ هو "المفتاح" من أجل استعمالها، لأن السر يجب أن يمنح للفرد من طرف شخص له رخصة للقيام بذلك حتى يجنب السقوط كضحية لقوى الشر، بمعنى الوقوع في مصيدة يضعها أفراد لا علاقة لهم بالسر و لا بالزاوية، كما أكد لنا الشاب الذي قابلناه.

إن الاعتراف بالشخص المناسب، والثقة و تداول الأسرار يبدو أنها عملية صعبة نوعا ما. وأكد لنا هذا الشاب أنه: "لا يقدم بسهولة الأسرار إلى الآخرين"، ويفضل بأن لا يتظاهر كشخص يملك الأسرار. وهذا مؤشر على عدم الرغبة في الظهور كمقدم بالزاوية؛ لهذا فالشاب، الذي قابلناه، يلبس لباسا عاديا، بل أكثر من ذلك لباسا شبابيا يرمز إلى اللباس الغربي (سروال وقميص شبابي...)، بدل لباس تقليدي (القميص الطويل الأبيض)[28] . ويشير الشاب "أنه من الأفضل انتظار أن يبرهن الشخص على جديته و صدقه قبل أن تقترح عليه الأسرار".

إن وزن وأهمية الأسرار تلعب دورا مهما في الطقوس الصوفية داخل الطريقة التيجانية. إن أغلب السينغاليين يبحثون عن القيام بالزيارة خلال الأسبوع الأخير من شهر رمضان، و السبب في ذلك هو الاعتقاد السائد بأن يوم الجمعة الأخير من هذا الشهر المقدس يوجد سر يعادل أربعمائة سنة من الصلاة، و أن الصلاة خلال اليوم السادس و العشرين من نفس الشهر تعادل ألف ورد من الذكر. كما أن المريدين يعتقدون أن القيام بالصلاة في حضرة الشيخ أحمد التيجان خلال أيام رمضان الخاصة، يمنح إمكانية القبول و الاستجابة من الله.

وفي ختام هذا الفصل، يمكن القول أن زاوية سيدي العربي بن السايح اندمجت تدريجيا في برامج الزيارة التي تنظم إلى مقر الزاوية التيجانية بمدينة فاس. هذه الزيارات تنظمها "الدائرة التيجانية للمقاولات التجارية" بمدينة دكار السينغالية. المعطيات التي جمعنها خلال البحث الذي أجريناه بمدينة دكار بينت أن زاوية سيدي العربي بن السايح بالرباط أضحت فضاء متجددا و وجهة أساسية للزائرين عبر إنشاء فروع إقتصادية-دينية عابرة للحدود الوطنية. هذا ما سنعالجه خلال الفصل الثاني من هذه الدراسة.

دور "دوائر المقاولات الكبرى" بالسينغال في تنظيم الزيارة إلى المغرب

سنحاول من خلال هذا الفصل، دراسة دور "دوائر المقاولات الكبرى" بدولة السينغال في تنظيم الزيارة إلى المغرب.

إن هذه الدوائر الدينية تعتبر بمثابة دعم لوجيستي من أجل تنظيم الزيارة إلى المغرب، خصوصا إلى مدينة فاس التي تحتضن ضريح مؤسس الطريقة التيجانية أحمد التيجان. هذه الظاهرة هي في الأصل حديثة النشأة، إذ انطلق العمل بها في أواخر التسعينات من القرن الماضي، وهي في نفس الوقت ظاهرة مبتكرة، لأن الزيارة في أول الأمر اقتصرت على الطبقات البورجوازية، و بخلق هذه الدوائر انفتح الأغنياء على الطبقة العاملة، و بالتالي ثم حصول نوع من الدمقرطة للزيارة نتيجة للترتيبات التنظيمية "لدوائر المقاولات الكبرى".

[28] هذا التعبير استعمله محاورنا و يستحق وقفة للتأمل. إذ يبين المظاهر المتناقضة للفاعلين داخل الزاوية. وقد عالج كثير من الباحثين هذا الموضوع، وتوصلوا إلى أن الدين، في سياق حداثي، أضحى مثل حدث اجتماعي ينتج قيود و متطلبات مرتبطة بالتكيف الاجتماعي. أنظر في هذا الصدد: فيري (2004) و كيلسمان (2001). (مراجع باللغة الفرنسية).

و من جهة أخرى، تلعب هذه الدوائر دورا حاسما في نشر خطاب يدور حول سيدي العربي بن السايح، الذي أضحى، من خلال هذا الخطاب، ك"مفتاح" للزيارة بالمغرب، رغم أن ما استقيناه من معلومات يشير إلى وجود اختلاف حول هذا الولي، إلا أن القاسم المشترك يتجلى في ضرورة المرور عبر مدينة الرباط لزيارة سيدي العربي بن السايح قبل التوجه إلى مدينة فاس.

"دائرة المطاحن الكبرى" بدكار

إن الدوائر، حسب رئيس "دائرة التيجان للمطاحن الكبرى" بدكار، هي عبارة عن منظمات دينية، أسست سنة 1932 من طرف سرين باباكر سي، الخليفة السابق للزاوية التيجانية بالسينغال. هذه الدوائر معترف بها من طرف وزارة الداخلية وتتوفر على تنظيم داخلي و كذا جمع عام مثل جميع جمعيات المجتمع المدني. الهدف من تأسيس هذه الدوائر، هو جمع الأفراد حول مجالس الإيمان و ليس على أساس الانتماء العرقي أو الطبقي أو المهني. في البداية كانت الطائفة التيجانية هي التي تؤسس الدوائر، حاليا جميع الطرق و الديانات تنتظم وفق نفس الطريقة. فنجد مثلا دائرة المريدين، دائرة القادريين و غير ذلك من الدوائر، بل نجد أيضا دائرة خاصة بالكاثوليكيين.

وينظم أعضاء "دائرة المطاحن الكبرى" الزيارة إلى مدينة فاس كل سنة، إذ انطلق أول فوج سنة 2004، بحيث اعتبرت هذه المقاولة من الشركات الأوائل، إلى جانب شركة "الميناء المستقل لدكار" و شركة "المياه"، التي تنظم الزيارة إلى مدينة فاس.

قبل ذلك، تركزت أنشطة هذه الدائرة في تنظيم و إحياء حفل ذكرى المولد النبوي[29] الذي كان ينظم كل سنة بمدينة "تيفاون"، عاصمة الطريقة التيجانية بالسينغال بحكم احتضانها لضريح الحاج مالك سي، احد الشيوخ المؤسسين للطريقة بهذا البلد و الذي ساهم في نشرها في باقي المدن الأخرى.

من بين ما اقترحه رئيس "دائرة المطاحن الكبرى" بعد الزيارة التي نظمت إلى المغرب، هو إنشاء "فيدرالية الدوائر التيجانية للمقاولات الكبرى" بدكار سنة 2006. هذه الفيدرالية تتكون حاليا من أثنتا عشر مقاولة تنظم الزيارة إلى المغرب كل سنة. ويتم تنظيم ذلك، عبر فرض كل مقاولة لواجب الانخراط على جميع أعضاء الدائرة (3 إلى 7 أورو شهريا، حسب المقاولة)، هذا الانخراط يسمح بجمع النقود التي تمنح فيما بعد لمجموعة من المنخرطين اختيروا عن طريق القرعة للقيام بالزيارة إلى المغرب.

إن رئيس "دائرة مطاحن دكار" الكبرى لم يسبق له أن اختير ضمن قرعة الزيارة، كما أنه لم يسبق له أن قام بالزيارة إلى المغرب أو سمع باسم سيدي العربي بن السايح. و لكنه يعرف أن وكيل الأسفار الذي ينظم الزيارة إلى المغرب يبرمج في إطار هذه الزيارة مرحلة الرباط قبل التوجه إلى مدينة فاس.

خلال الزيارات المتعددة التي قمنا بها إلى مقر شركة "المطاحن الكبرى" لدكار، التقينا اثنين من مريدي الطريقة التيجانية الذين سبق لهم و أن قاموا بالزيارة إلى ضريح سيدي العربي بن السايح في طريقهم إلى مدينة فاس. الاثنين معا يشتغلان كعمال بالمطاحن، لاحظنا أنهم يستعملون نفس المصطلحات ولهم نفس الخطاب الذي لمسناه خلال مقامنا بالزاوية بالرباط. أشار لنا احدهم أن ضريح سيدي العربي هو بمثابة "باب للدخول" إلى الزيارة التي تنظم إلى مدينة فاس، إذ أكد لنا هذا الأخير، أن المريد يجب أن يزور ضريح سيدي العربي قبل أن يتوجه إلى مقر مؤسس الطريقة التيجانية بمدينة فاس. أما

[29] احتفالات سنوية كبرى بمناسبة مولد النبي "محمد" خاتم الرسل في الدين الإسلامي. هذه الاحتفالات تستقطب عدد كبير من أنصار الطريقة التيجانية.

متحدثنا الثاني، فقد أشار أن زيارة ضريح أحمد التيجان بفاس تسبقها مقدمة مهمة و هي زيارة ضريح سيدي العربي بن السايح، خصوصا بالنسبة للنساء، لأن هذا الأخير حسب اعتقاده، يستمع أكثر لمشاكل النساء. الاثنين معا تعرفوا على زاوية سيدي العربي من خلال الزيارة التي قاموا بها إلى المغرب قاصدين زيارة ضريح مؤسس الزاوية التيجانية بمدينة فاس.

وكيل أسفار "دائرة المطاحن الكبرى" بدكار

بدأ اهتمام وكيل أسفار "المطاحن الكبرى" لدكار وباقي الشركات المنتمية إلى "فيدرالية الدوائر التيجانية" بالزيارة إلى مدينة فاس انطلاقا من بداية الألفية الثالثة، وذلك بعد المخيمات الصيفية التي نظمها لفائدة أطفال سينيغاليين. إذ لاحظ هذا الوكيل، أن هناك عدد مهم من السينيغاليين يقومون بالزيارة إلى مدينة فاس بصفة انفرادية أو عبر مجموعات صغيرة بصفة مستقلة وفي ظروف جد صعبة مرتبطة بوسائل التنقل وكذا صعوبة الذهاب إلى مقر الزاوية بمدينة فاس عند وصولهم إلى المغرب.

وقد كان هذا الوكيل أول من اقترح عرضا لسفر تفضيلي من أجل القيام بالزيارة إلى مدينة فاس بدون معاناة. ورغم صعوبات البداية، فقد نجح هذا الوكيل في تقديم نموذج ناجح من أجل تنظيم الزيارة، إذ صرح لنا هذا الأخير "أن نموذجه أضحى مرجعا لباقي وكالات الأسفار التي تتنافس معه من أجل تنظيم الزيارة".

قبل أن يستثمر في هذا المجال، لم يقم قط وكيل الأسفار بالزيارة، ولكنه يحتفظ بذكرى مرض أمه التي كانت تعاني من التهاب حاد للمفاصل، واضطرت إلى السفر، سنة 1983، من أجل زيارة الشيخ احمد التيجان لطلب العلاج وعادت إلى السينغال معافاة من المرض.

وأخبرنا أن هناك عدد كبير من المريدين لم يستطيعوا من قبل ادخار بعض النقود من أجل القيام بالزيارة، بحيث يمكن لهم اليوم الذهاب عبر دفع واجب الانخراط الشهري و كذا عملية القرعة التي تنظمها "دوائر المقاولات الكبرى".

ويتضمن برنامج الزيارات التي ينظمها وكيل الأسفار مرحلة زيارة زاوية سيدي العربي بن السايح، إذ فور وصوله إلى مطار محمد الخامس بمدينة الدار البيضاء، يربط الاتصال بشيخ الزاوية بالرباط من أجل ترتيب اللقاءات التي سيقوم بها الزائرين. بالنسبة لهذا الوكيل، إن الزيارة المنظمة إلى ضريح سيدي العربي بن السايح تعتبر شيء مهم، لأنها تحتضن ضريح أحد الشخصيات الصوفية القوية التي حققت الكثير من المعجزات حسب اعتقاده. وأضاف بأن الشيخ عبد العزيز دباح ساي، الخليفة السابق للزاوية التيجانية بالسينغال، قال بأن المريدين الذين وصلوا إلى الرباط و واجهتهم صعوبات من أجل إتمام السفر إلى مدينة فاس، يمكن لهم الاكتفاء بزيارة ضريح سيدي العربي بن السايح، وستعتبر زيارتهم كاملة و دعواتهم سيستجاب لها.

لاحظنا خلال حديثنا مع وكيل الأسفار، أن مقاربة النوع حاضرة في خطابه، إذ صرح لنا "أن سيدي العربي بن السايح يستمع إلى النساء أكثر من الرجال". وقد أكد أنه رافق عدد كبير من النساء السينيغاليات خلال زيارتهم للمغرب، ونصحهم بزيارة ضريح سيدي العربي بن السايح لأنه يحل مشاكل عديدة خاصة بالنساء كالعنوسة، العقم، المشاكل الزوجية وإلى غير ذلك من المشاكل المتعلقة بالمرأة. وبمجرد عودتهن إلى السينغال يربط الوكيل الاتصال بهن ليخبرنه بأن دعواتهن أستجيب لها.

"دائرة شركة المياه"

تعتبر "دائرة شركة المياه" هي الدائرة الأكثر عددا، فهي تحتضن 680 منخرطا من بين 1400 أجير بالشركة، و يترأسها، منذ ثلاث سنوات، شاب مقدم بالزاوية. وقد كانت هذه الدائرة هي أول من ينظم الزيارة إلى مدينة فاس، كان ذلك سنة 1999. لهذا السبب فهي تعد إلى جانب دائرة المطاحن الكبرى لدكار كمرجع بالنسبة لباقي الدوائر ليس فقط فيما يخص فكرة القيام بالزيارة ولكن من حيث التنظيم اللوجسيتي. ورغم أهميتها فهي لا تنتمي إلى "فيدرالية الدوائر التيجانية".

وصرح لنا الشاب المقدم، رئيس الدائرة، أن الرئيس السابق الذي يطلق عليه لقب الحاج، هو أول من أدخل برنامج الزيارة إلى مدينة فاس ب"دائرة شركة المياه". حيت اقترح الرفع من واجب الانخراط بالدائرة، بهدف إرسال مجموعة من الأعضاء إلى زيارة ضريح مؤسس الزاوية التيجانية.

يعيش الحاج حاليا في مرحلة التقاعد، وفي نفس الوقت يعتبر الرئيس الشرفي الحالي للدائرة، وقد قام منذ ستة و عشرين سنة بأول زيارة إلى مدينة فاس. ومنح له لقب شيخ الطريقة بمدينة الدار البيضاء بعد حصوله على الإجازة العليا، و هي الشهادة المهمة التي تمنح إلى المقدمين وتخول لهم تكوين و إرشاد مريدين مرموقين. هذه الإجازة تمكن صاحبها من الانتماء إلى سلسلة الطريقة. وتعتبر بمثابة درجة مرموقة داخل الطريقة، لأن صاحبها يملك السر الموروث بدءا من الشيخ المؤسس أحمد التيجان إلى أخر شيخ في السلسلة.

إن الرئيس الحالي، على سبيل المثال، حصل على الإجازة التي تخول له نقل الورد[30] وبعض الابتهالات. ويقوم بالزيارة إلى مدينة فاس كل سنة، وقد أكد لنا ما يلي:" من أجل التقدم إلى الأمام، لا يمكن لنا طلب الإجازة. كل ما يجب فعله هو رؤية الشيخ الذي بدأت معه مسارك بالزاوية بصفة منتظمة حتى يتمكن من ملاحظة تطور سلوكك، و إذا لم تتوفر لي الإمكانيات للذهاب إلى المغرب أتردد كثيرا على دوائر المقدمين هنا بالسينغال".

إن مسألة الإمكانيات توحي إلى كثرة الزيارات إلى المغرب و الانتماء إلى سلسلة مغربية بدل الانخراط في سلسلة سينيغالية. أو الانتماء إلى سلسلتين في نفس الوقت، كحالة الحاج الذي يتمتع برخصة مباشرة من عائلة الشيخ التيجان، وفي الوقت نفسه له رخصة منحت له من طرف أحد شيوخ الزاوية التيجانية بدولة السينغال. إن رئيس "دائرة شركة المياه" في بحث دائم عن سلسلة مغربية، لأن هذه الأخيرة، حسب تعبيره، هي علامة على التميز و الشهرة، ولأن ذلك يوحي بأننا أكثر قربا من شيخ التيجان، كما يعتقد.

خلال أسفارهم إلى المغرب يمر الزائرين عبر مدينة الرباط بصفة منتظمة حتى يتمكنوا من زيارة زاوية سيدي العربي بن السايح. لأن الفكرة السائدة فيما بينهم، أن مدينة الرباط تحتضن شخصية رمزية تتمثل في سيدي العربي بن السايح، التي يجب زيارتها قبل زيارة مدينة فاس، المحتضنة لضريح مؤسس الزاوية التيجانية أحمد التيجان.

خاتمة

إن الملاحظات التي أجريناها ما بين الرباط و دكار، من خلال العلاقات التي تجمع الفاعلين المعنيين بزاوية سيدي العربي بن السايح، مكنتنا من ولوج فضاء مركب، يلعب في داخله الفاعلين أدوارا مختلفة. إن الأسئلة و الأبعاد الخاصة بكل فرد من الزاوية تتداخل و تندمج مع باقي مريدي الزاوية من خلال العلاقات التي يربطونها فيما بينهم. بالإضافة إلى ذلك، يعتبر شيخ الزاوية بمثابة ولي مقدس يلجئ إليه المريدين من أجل طلب حلول لمشاكلهم الاجتماعية، وبدرجة أخص المشاكل الأسرية وغير ذلك من المشاكل التي يعيشها المريد في حياته اليومية. هذا الشيخ يحمل أسرارا

[30] طقس من طقوس الزاوية، وضعه مؤسس الطريقة التيجانية، يتضمن مجموعة من الأذكار التي يجب أن يحفظها المريد.

تمنح لمن يحملها مكانة خاصة داخل طقوس الزاوية، لهذا فهو جدير بالتقدير والاحترام من طرف جميع أتباع الزاوية وكذا الزائرين الموسميين. الكثير من أبعاد الشيخ تدمج أو تتداخل مع تلك المتعلقة بالولي سيدي العربي بن السايح المدفون بالزاوية. هذا الأخير له مكانة خاصة في قلوب المريدين، إذ يعتقد أنه "الباب"الذي يمكن ولوجه من أجل الوصول إلى مصاحبة مؤسس الزاوية أحمد التيجان، المصنف كعارف بالله لدى الأتباع و المريدين.

إن إنجاز هذه الدراسة مكننا، رغم صعوبة الفضاء الميداني، من ملاحظة مسلسل التحولات التي يعرفها مكان خاص بالعبادة من خلال الزيارات التي يقوم بها الزائرين السينغاليين في طريقهم إلى مدينة فاس. هناك عوامل عديدة يمكن أن تساهم في جعل هذا الفضاء معجزة. لاحظنا ذلك، من خلال الأشخاص الذين أجرينا معهم البحث، بحيث لمسنا أن كل فرد ينتمي إلى الزاوية له دور داخلها. هؤلاء الأشخاص جد متحمسين عبر انتظارا تهم و أهدافهم المختلفة.

في الجانب المغربي، هناك زاوية ثانوية بمدينة الرباط و التي تلعب دور ظل الزاوية الأم المتواجدة بمدينة فاس، و التي تندرج في إطار ديناميكية تنافسية مع باقي الطرق الصوفية التي بدأ يتصاعد دورها بالمغرب وخارجه كالزاوية البوتشيشية. إن شيخ هذه الزاوية الرباطية (نسبة إلى مدينة الرباط) في بحث دائم عن أتباع جدد حتى تستطيع زاويته البقاء. هذا الشيخ لا يمكن له الاعتماد إلا على موارده الروحية التي يتوفر عليها كالبركة التي بحوزته و ضريح الولي الذي يشرف عليه و مكانته المتميزة داخل السلسلة الروحية التي تربطه بالشيخ أحمد التيجان مؤسس الطريقة التيجانية.

في الجانب السينغالي، هناك نظام سوسيو-ديني (الدائرة) يهدف إلى تنظيم الأنشطة الروحية للمنخرطين بالدائرة. داخل هذا النظام، وبالضبط بالمقاولات، تعتبر الزيارة التي تنظم إلى مدينة فاس، ظاهرة ذات أهمية كبرى. وتشكل بالنسبة للعديدين هيبة وسمعة كبيرة. هذا النجاح الذي تحققه الزيارة إلى مدينة فاس له انعكاس إيجابي على زاوية سيدي العربي بن السايح بمدينة الرباط، خصوصا عبر الترويج الذي يقوم به مختلف الشيوخ وكذا وكالات الأسفار السينغالية والروايات التي يقوم بسردها الزائرين الذين سبق لهم وأن قاموا بزيارة المغرب.

وفي الختام، يمكن القول بأن مصالح الفاعلين بهذا الفضاء السوسيو-اقتصادي تمتد بين البحث عن الشهرة و عن تغذية الروح و البحث عن ربح تجاري. كل ذلك، يمكن استنتاجه من خلال التميز الذي يمنح لكل من ينتمي إلى السلسلة الروحية بالزاوية، أو من خلال الزيادة في القدرة التجارية لوكالات الأسفار.

المراجع

- Andezian S., 1995, « Maghreb » in *Le culte des saints dans le monde musulman. École* française d'Extrême-Orient, Paris.
- Benabdellah A., 1995, *Le soufisme afro-maghrebin aux XIX et XX siècles.* Ed. Cap Tours S.A.

- Jacques Caillé, (la date de publication n'est pas indiquée), *La ville de Rabat jusqu'au protectorat français*, publication de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, tome XLIV, volume 1.
- Jacques Gaillé, (la date et la maison de publication ne sont pas indiquées), *La petite histoire de Rabat*.
- Doutté E., 1984 (1908), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*. Maisonneuve et Geuthner, Paris.
- Depont O. et Coppolani X., 1897, *Les confréries religieuses musulmanes.* A. Jourdan, Alger.
- Drague G. (Spillman), 1951, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confréries et zaouias. J.Peyronnet et Cie, Paris.
- El Adnani J., 2000, « Réflexions sur la naissance de la Tijaniyya. Emprunts et surenchères », in *La Tijaniyya. Une confrérie musulmane à la conquête de l'Afrique.* Karthala, Paris.
- Ferrié J.N., 2004, *La religion de la vie quotidienne chez les marocains musulmans.* Karthala, Paris.
- Gellner E., 1969, *Saints of the Atlas.* Weidenfeld et Nicolson, Londres.
- Gilsenan M., 2001, *Connaissance de l'islam*. Karthala-Irenam, Paris-Aix-en-Provence.
- Gutwirth J., 1991, *Anthropologie urbaine religieuse: une introduction*. In : Archives des sciences sociales des religions. N.73.
- Kane O., 1993, « La communauté Tijane du Sénégal et la Zawiya du Cheikh Ahmed Tijani de Fès" in *Fès et l'Afrique. Relations économiques, culturelles et spirituelles.* Série Colloques et Séminaires, pub. de l'Institut d'Études Africaines de Rabat.
- Piga A., 2006, *Les voies du soufisme au sud du Sahara,* ed. Karthala, Paris.
- Radi S., 1994, « Croyance et référence. L'utilisation de l'Islam par le *Fqih* et par la *suwafa* à Khénifra (Maroc)» in *L'islam pluriel au Maghreb*, sous la direction de Ferchiou. Extrait de l'Annuaire de l'Afrique du Nord, CNRS Éditions.
- Sambe B., , 2010, *Islam et diplomatie : la politique africaine du Maroc*. Ed. Marsam, Rabat.
- Seck A., 2010, *La question musulmane au Sénégal. Essai d'anthropologie d'une nouvelle modernité*. Karthala, Paris.
- Triaud J.L. et Robinson D., 2000, *La Tijaniyya. Une confrérie musulmane à la conquête de l'Afrique.* Karthala, Paris.